أخبار
عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم وبه استعين

الحمد لله الذي اسعد من شاء من خليقته ووفقهم للقيام بطاعته واستعملهم فيما يرضيه مع صغر سن احدهم وحداثته ليتبين بذلك ان السعادة بيديه والتوفيق بارادته احمده على سوابغ نعمته واسأله التوفيق لشكره والامداد بمعونته واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة كافلة لفلاح العبد وسعادته واشهد ان محمدا عبده ورسوله وحبيبه وخليله وامينه على وحيه وخيرته من بريته صلى الله عليه وعلى آله وصحابته والتابعين لمنهاجه وسنته ۞ اما بعد فان في سماع اخبار الاخيار مقوي العزائم ومعين على اتباع تلك الآثار وقد قال بعض العارفين الحكايات جند من جنود الله تقوى بها قلوب المريدين ثم تلا قول الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ۞ وقد رأيت ان اجمع في هذا الجزء اخبار عبد الملك بن امير المؤمنين ابي حفص عمر بن عبد العزيز القرشي الاموي رضي الله عنهما لسبب اقتضى ذلك وقد كان رحمه الله مع حداثة سنه مجتهدا في العبادة ومع قدرته على الدنيا وتمكنه منها راغبا عنها متقشفا للزهادة فعسى الله ان يجعل في سماع اخباره لاحد من ابنائنا جنسه اسوة لعل حرا اكريما من ابناء الدنيا ياخذه بذلك حميّة على نفسه ونحوه مع انه لن يخلو سماع الصالحين من تحصيل

بعض

المكتبة المحمودية في المدينة المنورة (م)

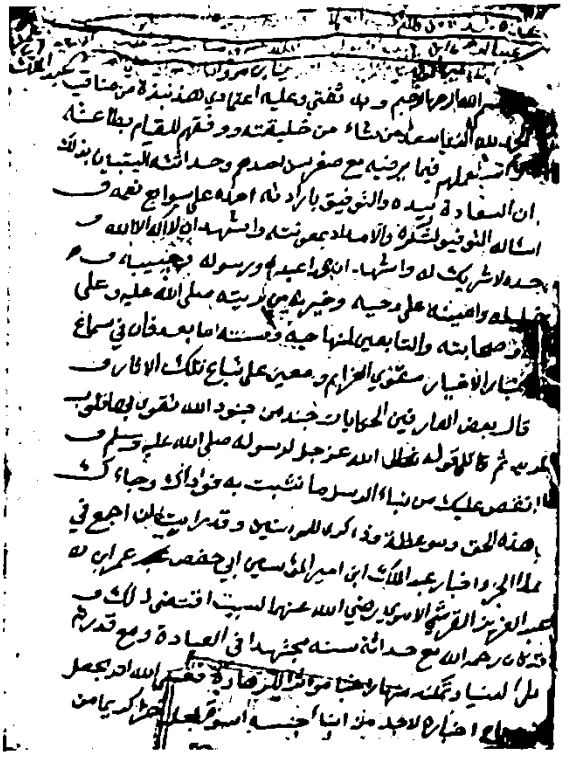

المكتبة السعودية في الرياض (س)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي أقام بصالحي خلقه حجته على سائر العبيد، ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

والصلاة والسلام على نبينا الداعي إلى الأمر الرشيد، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم على التقوى والقول السديد.

أما بعد:

فهذه الرسالة اللطيفة في سيرة فتى نشأ في بيت الخلافة والملك، أبوه: الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان، وعم أبيه: عبد الملك بن مروان، وأبناء عم أبيه: الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، ويزيد بن عبد الملك، خلفاء وملوك بني أمية.

* فكان ذلك الفتى حجة على الفتيان في استقامته وعبادته رغم حداثة سنه، وكم يتذرع الفتيان بحداثة الأسنان لما يستهويهم من زينة الدنيا وزخرفها وشهواتها!

* وكان ذلك الفتى أيضاً حجة على أبناء الملوك وذوي السلطان في زهده وإعراضه عن الاغترار بالسلطة والتعاظم على الخلق.

فجمع الحافظ ابن رجب رحمه الله أخبار ذلك الفتى لما في سماع أخبار

الأخيار من نهوض بالعزائم، ورفع للهمم، وحث على الاقتداء؛ فالحكايات جندٌ من جنود الله يثبت الله بها قلوب أوليائه.

رحم الله عبد الملك، ورحم أباه عمر بن عبد العزيز، وجمعنا بهم في مستقر رحمته.

* * *

اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على نسختين خطيتين:

١ـ النسخة الأولى: نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، ورمزها (م).

وهي الرسالة الثانية ضمن المجموع (١٧٤٢)، وتقع في (٢٩) لوحة (من ٩/ ب إلى ٣٧/ أ) وعنوانها: «أخبار عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز».

ووصف ناسخها المصنف بقوله: «تأليف شيخنا الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام...» وهي بخط: أحمد بن محمد بن خضر الحنبلي النجاد عفا الله عنه.

وفي المجموع ما يرجع تاريخه إلى ٨٣٦هـ. وقد اتخذت هذه النسخة أصلاً.

٢ ـ النسخة الثانية: نسخة المكتبة السعودية بالرياض ورمزها (س).

وهي برقم (٥٤ ـ ٨٦) وتقع في (١٥) لوحة، وخطها متأخر، وفيها أسقاط كثيرة وتصحيفات، وعليها اعتمد من طبع الكتاب من قبل.

وجاء في أولها: «هذه نبذة من كلام الشيخ العلامة والقدوة الفهامة عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي رضي الله عنه في مناقب عبد الملك ابن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي رضي الله عنهم أجمعين».

وكتب عند ختم المكتبة بخط حديث: «سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز».

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

* * *

[1]بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

وبه أستعينُ[2]

الحمدُ للهِ الذي أسعدَ مَن شاءَ مِن خَليقتِه، ووفَّقَهم للقيامِ بطاعتِه، واستعملَهم فيما يُرضيه مع صغَرِ سنِّ أحدِهم وحَداثتِه، ليتبيَّنَ بذلك أنَّ السَّعادةَ بيدِه والتَّوفيقَ بإرادتِه.

أحمَدُه على سوابغِ نعمتِه، وأسألُه التَّوفيقَ لشُكرِه والإمدادَ بمَعونتِه، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً كافلةً لفلاحِ العبدِ وسعادتِه، وأشهدُ أنَّ مُحمَّداً عبدُه ورسولُه وحبيبُه وخليلُه وأمينُه على وَحيِه وخيرتُه مِن برِيَّتِه، صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وصحابتِه، والتَّابعينَ لِمنهاجِه وسُنَّتِه.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ في سماعِ أخبارِ الأخيارِ مُقوي العزائمِ ومُعينٌ[3] على اتِّباعِ تلك الآثارِ.

---

(١) قبلها في (م): «أخبارُ عبدِ الملكِ بنِ عمرَ بن عبدِ العزيزِ، تأليفُ شيخِنا الإمامِ العالمِ العلاَّمةِ، شيخِ الإسلامِ، زينِ الدِّينِ أبي الفرَجِ عبدِ الرَّحمنِ ابنِ الإمامِ العالمِ الزَّاهدِ أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ رجَبٍ. قدَّسَ اللهُ روحَه، ونوَّرَ ضريحَه، وجمعَ اللهُ بيننا وبينَه في جنَّتِه مع عبادِه الصَّالحينَ بمنِّه وكرَمِه. آمينَ ربَّ العالمَين، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل».

وفي (س): «هذه نبذة من كلام الشيخ العلامة، والقدوة الفهامة، عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي رضي الله عنه، في مناقب عبد الملك ابن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي رضي الله عنهم أجمعين»

(٢) في (س): «وبه ثقتي، وعليه اعتمادي».

(٣) هكذا جاءت العبارة في (م) و(س) ولا حاجة للتغيير فيها، فـ: «مقوي»: مبتدأ، خبره محذوف =

وقد قالَ بعضُ العارفينَ: الحكاياتُ جندٌ مِن جنودِ اللهِ، تَقْوى بها قلوبُ المريدينَ، ثمَّ تلا قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ لرسولِه ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠][1].

وقد رأيتُ أنْ أجمعَ في هذا الجزءِ أخبارَ **عبدِ الملكِ ابنِ أميرِ المؤمنينَ أبي حفصٍ عمرَ بن عبدِ العزيزِ القُرَشيِّ الأُمَويِّ** رضِيَ اللهُ عنهُما لسببٍ اقتضى ذلك، وقد كانَ رحمَه اللهُ مع حداثةِ سنِّه مُجتهِداً في العبادةِ، ومع قدرتِه على الدُّنيا وتمكُّنِه منها راغباً عنها مؤثِراً للزَّهادةِ.

فعسى اللهُ أن يجعلَ في سماعِ أخبارِه لأحدٍ مِن أبناءِ جنسِه أسوةً، لعلَّ حُرًّا كريماً مِن أبناءِ الدُّنيا تأخذُه بذلك حميَّةٌ على نفسِه ونخوةٌ، مع أنَّه لن يخلوَ سماعُ أخبارِ[2] الصَّالحينَ مِن تحصيلِ رقَّةٍ للقُلوبِ وإزالةٍ للقسوةِ.

وأيضاً: ففي ذكرِ أخبارِ مثلِ هذا السَّيِّدِ الجليلِ مع حداثةِ سنِّه توبيخٌ لمَن جاوزَ سنَّهُ وهو بطَّالٌ، ولِمَن كان بعيداً عن أسبابِ الدُّنيا وهو إليها ميَّالٌ، واللهُ تعالى المسؤولُ أن يُوفِّقنا وسائرَ إخوانَنا المؤمنينَ لِمَا وفَّقَ له عبادَه الصَّالحين، وأن يُعينَنا على ما أعانَهم عليه بمنِّه وكرمِه آمين.

وقد قسمتُه أحدَ عشرَ باباً، واللهُ يجعلُه عمَلاً خالِصاً صَواباً.

البابُ الأوَّلُ: في ذكرِ عبادتِه واجتهادِه وتهجُّدِه وبُكائِه وإخفائِه لذلك.

= تقديره كائن، وبه يتعلق الجار والمجرور «في سماع» والله أعلم.

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ١٢٧)، عن أبي بكر الكتاني، والقشيري في «الرسالة» (٢/ ٣٥٤) عن الجنيد رحمهم الله.

(٢) «أخبار»: سقطت من (م).

البابُ الثَّاني: في ذكرِ علمِه وفقهِه وفهمِه.

البابُ الثَّالثُ: في ذكرِ زهدِه في الدُّنيا وقناعتِه منها باليسيرِ وبُعدِه من الإسرافِ.

البابُ الرَّابعُ: في ذكرِ حلمِه وكظمِه للغيظِ.

البابُ الخامسُ: في ذكرِ كلامِه في قِصَرِ الأمَلِ، والمبادرةِ قبلَ هُجومِ الموتِ بالعمَلِ.

البابُ السَّادسُ: في ذكرِ صلابتِه في الدِّينِ وقوَّتِه في تنفيذِ الحقِّ، واجتهادِه على الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ، ومواعظِه لأبيهِ في ذلك.

البابُ السَّابعُ: في ذكرِ هوانِ نفسِه عليه في ذاتِ اللهِ تعالى، ورضاه بكلِّ ما ينالُه مِن الأذى في تنفيذِ أوامرِ اللهِ.

البابُ الثَّامنُ: في ذكرِ شدَّةِ حذرِه مِن الظُّلمِ وتَنزُّهِه مِن ذلك.

البابُ التَّاسعُ: في ذكرِ مرَضِه ووَفاتِه.

البابُ العاشرُ: في ذكرِ سنِّه ومقدارِ عُمرِه[1].

البابُ الحادي عشرَ: في ثناءِ العُلماءِ عليه مِن أهلِ زمانِه ومَدحِهم له.

* * *

(١) في (س): «علمه» وهو سبق قلم.

البابُ الأوَّلُ

في ذكرِ عبادتِه واجتهادِه، وتهجُّدِه وبُكائِه، وإخفائِه لذلك:

روى الحافظُ أبو نُعَيمٍ في كتابِ «حلية الأولياءِ» بإسنادِه، عن بعضِ مَشيَخةِ أهلِ الشَّامِ قالَ: كنَّا نرى أنَّ عُمرَ بن عبدِ العزيزِ إنَّما أدخلَه في العبادةِ ما رأى مِن ابنِه عبدِ الملكِ رحمَه الله[١].

وروى الإمامُ أبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سَلَّامٍ في كتابِ «فضائلِ القرآن» بإسنادِه، عن عاصمِ بن أبي بكرِ بن عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ، وهو ابنُ أخي عمرَ بن عبدِ العزيزِ، قالَ: وفَدْتُ إلى سُلَيمانَ بنِ عبد الملكِ ومعنا عمرُ بن عبدِ العزيزِ، فنزلتُ على ابنِه عبدِ الملكِ وهو عزَبٌ، فكنتُ معه في بيتٍ فصلَّيْنا العشاءَ، وأَوَى كلُّ رجُلٍ منَّا إلى فراشِه، ثمَّ قامَ عبدُ الملكِ إلى المصباحِ فأطفأَه وأنا أنظرُ إليه، ثمَّ قامَ يُصلِّي حتَّى ذهبَ بي النَّومُ، فاستيقظتُ فإذا هو في هذه الآيةِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ـ٢٠٦] فيبكي، ثمَّ يرجعُ إليها، فإذا فرغَ منها فعلَ مثلَ ذلك، حتَّى قلتُ: سيقتلُه البكاءُ، فلمَّا رأيتُ ذلك قلتُ: لا إلهَ إلا اللهُ والحمدُ للهِ، كالمُستيقِظِ مِن النَّومِ لأقطعَ ذلك عليه، فلمَّا سَمِعَني سكتَ، فلم أسمَعْ له حِسًّا رحمَه اللهُ تعالى[٢].

***

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٤). ومن طريقه: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٣٩).

(٢) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٨٠).

البابُ الثاني

في ذكرِ علمِه، وفقهِه، وفَهمِه:

روى ابنُ أبي خيثمةَ في «تاريخه» بإسنادِه، عن سليمانَ بنِ يَسارٍ قالَ: ركبتُ أنا وعمرُ بن عبدِ العزيزِ ومعنا عبد الملكِ بنُ عمرَ بن عبدِ العزيزِ بديرِ مُرَّانَ[1]، وفيها الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ، فقالَ عبدُ الملكِ بنُ عمرَ: أرأيتَ المرأةَ تطلقُ ثمَّ تحيضُ الثَّالثةَ، فقلتُ: قد حلَّتْ، فقالَ عبدُ الملكِ: فأينَ ما يُذكَرُ عن ابنِ عبَّاسٍ؟ فقالَ: ذرنا منك، بحَديثٍ عن زيدِ بنِ ثابتٍ ومعاويةَ بنِ أبي سفيانَ[2].

ومعنى هذه المسألةِ أنَّ الأقراءَ الثَّلاثةَ التي تعتَدُّ بها المُطلَّقةُ هل هي الحيضُ أو الأطهارُ بين الحِيَضِ؟ فأفتى سليمانُ بنُ يَسارٍ بأنَّها الأطهارُ، وأنَّ المُطلَّقةَ إذا طُلِّقَت في أثناءِ طُهرٍ ثمَّ حاضت حيضتينِ، وطهرَتْ طُهرَينِ، ثمَّ شرَعت في الحيضةِ الثَّالثةِ أنَّها تَنقضي[3] لِمُضيِّ الأطهارِ الثَّلاثةِ عليها بذلك، وهو قولُ زيدِ بنِ ثابتٍ وغيرِه مِن الصَّحابةِ، فعارضَه عبدُ الملكِ بقولِ ابنِ عبَّاسٍ: إنَّ الأقراءَ هيَ الحِيَضُ، فلا تنقضي عدَّتُها حتى تطهرَ مِن الحيضةِ الثَّالثةِ.

---

(١) اسم موضعين في بلاد الشام.

أحدهما قرب المعرة مشرف على كفرطاب يقولون إن فيه قبر عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

والآخر بسفح قاسيون في دمشق وكان ينزل فيه الخلفاء من بني أمية ومن بني العباس وهو الذي كان فيه الوليد بن عبد الملك، وجرت فيه هذه القصة.

(٢) وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٢/ ٢٢٤) من طريق ابن أبي خيثمة، وفيه: «نريد دير مران». «ذرنا منك! نحدث عن زيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان ثم تأتينا بابن عباس!».

(٣) أي: عدتها.

وأكثرُ علماءِ الحجازِ على ما أفتى به سليمانُ بنُ يَسارٍ، وأنَّ الأقراءَ هي الأطهارُ، وهو قولُ مالكٍ والشَّافعيِّ.

وأكثرُ عُلَماءِ العراقِ على أنَّ الأقراءَ هي الحِيَضُ، وهو قولُ أبي حنيفةَ والمشهورُ عن الإمامِ أحمدَ.

واختلَفوا هل تنقضي[1] عدَّتُها بانقطاعِ الدَّمِ مِن الحَيضةِ الثَّالثةِ أم لا تنقضي عِدَّتُها حتى تغتسِلَ؟، على قولينِ مَشهورينِ لهم.

وروى الدَّورَقيُّ في كتابِ «مناقب عمر بن عبدِ العزيزِ» بإسنادِه، عن حفصِ بنِ عمرَ، أنَّ عمرَ بن عبدِ العزيزِ جمعَ النَّاسَ واستشارَهم في ردِّ مَظالمِ الحجَّاجِ، فكان كلَّما استشارَ رَجُلاً قالَ له: يا أميرَ المؤمنينَ! ذاك أمرٌ كان في غيرِ سُلطانِك ولا وِلايتِك، فكان كلَّما قالَ له رجلٌ ذلك أقامَه، حتَّى خلصَ بابنِه عبدِ الملكِ، فقالَ له ابنُه عبدُ الملكِ: يا أبَه! ما آمَنُ على رجلٍ[2] استطاعَ أن يرُدَّ مَظالمَ الحَجَّاجِ إن لم يَرُدَّها أن يشركَه فيها، فقالَ عمرُ: لولا أنَّك ابني لقلتُ إنَّكَ أفقَهُ النَّاسِ[3].

وهذا الذي قالَه عبدُ الملكِ ومدحَه عليه أبوه هو الصَّوابُ، فإنَّ الإمامَ إذا قدرَ على ردِّ مَظالمِ مَن قبلَه مِن الوُلاةِ وجبَ هو عليه ذلك بحسبِ الاستطاعةِ.

واعلم أنَّ السَّلفَ كانوا يقسمونَ العُلماءَ ثلاثةَ أقسامٍ:

١ ـ قسمٌ يَعرفونَ اللهَ ويخشونَه ويحبُّونَه ويتوكَّلونَ عليه، وهم العُلَماءُ باللهِ.

٢ ـ وقسمٌ يعرفونَ أمرَ اللهِ ونهيَه وحلالَه وحرامَه، وهم العلماءُ بأمرِ اللهِ.

---

(١) في (س): «في انقضاء».

(٢) في (س): «ما آمن رجلًا».

(٣) أخرج نحوه من طريق آخر ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤٧ ـ ٤٨).

٣ ـ وقسمٌ يجمعونَ بين الأمرينِ، وهم أشرفُ العُلَماءِ حيثُ جمَعوا بين العِلمِ باللهِ والعلمِ بأمرِ اللهِ[١].

وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وابنُه عبدُ الملكِ مِن هذا القسمِ، وكذلك كانَ أكثرُ السَّلَفِ رضِيَ اللهُ عنهُم يجمعونَ بين العلمِ باللهِ الذي يَقتضي خشيتَه ومحبَّتَه والتَّبتُّلَ إليه، وبين العلمِ بأمرِ اللهِ الذي يقتضي مَعرفةَ الحلالِ والحرامِ والفتاوى والأحكامِ، ومنهم مَن كانَ مُتوسِّعاً في كلا العلمينِ[٢]، كالحسنِ البصريِّ وسفيانَ وأحمدَ بنِ حَنْبل.

ومِنهم مَن كان نصيبُه مِن أحدِهما أوفرَ مِن نصيبِه مِن الآخرِ.

وأمَّا المتأخِّرونَ: فقلَّ فيهم مَن جمَعَ بين العِلمينِ الذي كانَ عليه عُلماءُ المُسلمينَ، وسلَكَ كلا الطَّريقينِ، واللهُ المُوفِّقُ للخيرِ والمُعينُ عليه بمَنِّه وكرَمِه.

* * *

(١) انظر: «فضل علم السلف على علم الخلف»، و«شرح حديث أبي الدرداء». للمصنف رحمه الله.

(٢) في (م): «في ذلك كلا العلمين».

البابُ الثَّالثُ

في ذكرِ زُهدِه في الدُّنيا وقناعتِه باليسيرِ، وبُعدِه مِن الإسرافِ:

روى ابنُ المُبارَكِ رحمَه اللهُ في كتابِ «الزهد» له بإسنادِه عن ميمونِ بنِ مهرانَ قالَ: قالَ لي عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: أمَا دخلتَ على عبدِ الملكِ؟ ـ يعني ابنَه ـ، قالَ: فأتيتُ البابَ فإذا وصيفٌ، فقلتُ: استأذِن لي عليه، فقالَ: ادخُل فإنَّ عندَه النَّاسَ، أوَأميرٌ هو؟ فدخلتُ عليه، فقالَ: مَن أنتَ؟ قلتُ: ميمونُ بنُ مهرانَ، فعرفَ، ثمَّ حضرَ طعامُه، فأُتِيَ بقَلِيَّةٍ مَدنيَّةٍ وهي عظامُ اللَّحمِ[1]، ثمَّ أتيَ بثريدةٍ[2] قد مُلِئَت خبزاً وشَحْماً، ثمَّ أُتِيَ بزُبدٍ وتمرٍ، فقلتُ: لو كلَّمتَ أميرَ المؤمنينَ يخصُّكَ منه بخاصَّةٍ، فقالَ: إنِّي لأرجو أنَّه يكون أوفى حظًّا عندَ اللهِ مِن ذلك، إنِّي في ألفينِ كان سليمانُ ألحَقَني بهما، واللهِ لو كان أبي في نفسِه لَمَا فعلَ، ولي غلَّةٌ بالطَّائفِ إن سَلِمَتْ لي أتاني غلةُ ألفِ درهمٍ، فما أصنعُ بأكثرَ مِن ذلك؟ فقلتُ في نفسي: أنتَ لأبيكَ[3].

وقد رُوِيَت هذه القصَّةُ مِن وجهٍ آخرَ، وأنَّ ميمونَ بنَ مهرانَ قالَ: دخلتُ على عبدِ الملكِ وبين يديه قليلٌ مِن طعامٌ فما منعَني مِن الأكلِ معَه إلا الإبقاءُ عليه[4].

وروى الدَّورقيُّ بإسنادِه عن ميمونِ بنِ مهرانَ قالَ: قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ابني عبدُ الملكِ قد أعجبتُ به، فما أدري أهو كذلك أم حبُّ الوالدِ للولدِ؟ فأنا أحبُّ أن تأتيَه فتسبرَ ما عندَه، فإن كان على ما ظننتُ أخبرتَني فحَمِدتُ اللهَ عليه، وإن كان غيرَ ذلك أدَّبتَه، فإنَّما هو ابنُ أخيك.

---

(١) كأنه مَرَقُ عظامِ اللحم.

(٢) في النسختين: «بثرة»، والمثبت من «الزهد».

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٨٨). ومن طريقه: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤٢).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤٢) من طريق الدورقي.

قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ: فانتهيتُ إليه فاستأذنتُ فدخلتُ عليه، وإذا تحتَه مِسحٌ خَلَقٌ وشاذِكونةٌ[١] خَلَقةٌ ومرفقةٌ قد ترفَّقَ بها، فوسَّعَ لي لأجلسَ معه فجلستُ مقابلَه فقلتُ: هاهنا[٢] أحبُّ إليَّ، وإذا بين يديه مائدةٌ عليها ثلاثةُ أرغفةٍ وقَصعةٌ فيها خلٌّ وزيتٌ، فقلت: هذا طعامُك في كلِّ يومٍ؟ فقالَ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ صيَّرَ الدَّهرَ أثلاثاً، يومَ خبزٍ ولحمٍ، ويومَ لبنٍ، ويوم خبزٍ وزيتٍ، فبينا أنا كذلك إذ جاءَ غُلامٌ له فقالَ: قد فرَّغناها، فأعرضَ عنه، ثمَّ عاودَه[٣]، فقلتُ: ما هذا الذي فرغَ؟ قالَ: الحمَّامُ، قلتُ: هذا الحمَّامُ لك؟ قالَ: لا، قلتُ: فلأحدٍ مِن إخوتك؟ قالَ: لا، قلتُ: فلأحدٍ مِن أهلِ بيتك؟ قالَ: لا، قلتُ: فلأميرِ المؤمنينَ؟ قالَ: لا، قلتُ: فبمَ استحللتَ أن تُفرغَ حمَّامَ المسلمينَ؟ فلعلَّ إذا رجلٌ يجيءُ مِن أقصى المدينةِ فيُحالُ بينه وبين الحمَّامِ، أو تعطيه بقدرِ ما تشغلُ عليه حمَّامَه؟ فهذه نفقة باطلٍ، هذا أريدُ أن أُنهِيَه إلى أميرِ المؤمنينَ، قالَ: أوتسترُ عليَّ يا عمِّ؟ واللهِ ما يسرُّني أنَّه وجَدَ عليَّ ساعةً مِن نهارٍ ثمَّ أتاني عنه الرِّضا، ولا أنَّ لي الدُّنيا وما فيها، ولكَ عليَّ ألَّا أدخُلَ الحمَّامَ إلا ليلاً أو معَ ضعفةِ النَّاسِ، قالَ: قلتُ له: افعَل، فخرجتُ مِن عندِه فما رأيتُ أفضلَ مِن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ولا ابناً أفضلَ مِن عبدِ الملكِ رضِيَ اللهُ عنهُما.

وقد رُوِيَت هذه القصَّةُ مِن وجهٍ آخرَ، وفيه أنَّ عبد الملكِ قالَ: لولا بردُ بلادِنا ما دخلتُه ـ يعني الحمَّامَ ـ ليلاً ولا نهاراً، وأنَّه إنَّما كان امتناعهُ مِن دخولِه مع النَّاسِ خشيةَ أن يَرى فيه مُنكَراً فيؤدِّبَ فاعلَه، فربَّما خَشِيَ أن يُجاوِزَ حدَّ

---

(١) فارسية: تعني الفِراش.

(٢) في (س): «ما ههنا».

(٣) في (س): «فعاود».

الأدبِ، أو أن ينسبَ إلى شيءٍ مِن الظُّلمِ في ذلك، وسيأتي ذكرُ ذلك فيما بعدُ إن شاءَ اللهُ تعالى[١].

هذا مع أنَّ طائفةً مِن أعيانِ العُلَماءِ رأَوْا إخلاءَ الحمَّامِ وزيادةَ صاحبِه في الأجرةِ لذلك، لِمَا في ذلك مِن السَّلامةِ مِن رُؤيةِ المنكراتِ، مثل كشفِه للعورةِ وغيرِها، وممَّن رأى ذلك: عُروةُ بنُ الزُّبيرِ وأبو جعفر بن عليٍّ الباقرُ، وسفيانُ الثَّوريُّ رحمَهم اللهُ[٢].

وأمَّا ميمونُ بنُ مهرانَ فقد كرِهَ ذلك، وعلَّلَ بأنَّه قد يأتي الرَّجلُ الضَّعيفُ مِن مكانٍ بعيدٍ، فيمتنعُ مِن دخولِه حينئذٍ لإخلائِه، وعلَّلَه أيضاً في روايةٍ أخرى بأنَّ هذه نفقةُ كبرٍ وسرَفٍ، ولكن هذا إذا كان المقصودُ بإخلائِه مجرَّدَ التَّكبُّرِ والتَّعاظُمِ دون السَّلامةِ مِن رؤيةِ المنكراتِ، واللهُ أعلَمُ.

* * *

---

(١) انظر أول الباب الثامن، حيث نقل المصنف القصة من كتاب «الحمام» لابن بطة.

وقد حكى هذه القصة: إبراهيم البيهقي في «المحاسن والمساوئ» (٢/ ١٨٦ ـ ١٨٨) من طبعة النعساني.

(٢) روى البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٢١) أن الثوري دخل الحمام، فدخل عليه غلام صبيح، فقال: أخرجوه، فإني أرى مع كل امرأة شيطاناً، ومع كل غلام بضعة عشر شيطاناً».

وقال الإمام أحمد: السَّفلة: هو من يدخل الحمام بلا مئزر، ولا يبالي على أي معصية رؤي. نقله ابن مفلح في «الفروع» (١١/ ٤٥).

البابُ الرَّابعُ

في ذكرِ حلمِه وكظمِه للغيظِ[١]:

روى ابنُ أبي الدُّنيا في كتابِ «العفو وذمِّ الغضب» مِن حديثِ يعقوبَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ، عن أبيه قالَ: أمرَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ غلامَه بأمرٍ، فغضِبَ عمرُ، فقالَ له ابنُه عبدُ الملكِ وهو معَه: يا أبتاه! ما هذا الغضبُ والاختلاطُ؟ فقالَ له عمرُ: إنَّك لَمُتحَلِّمٌ يا عبدَ الملك، فقالَ له عبدُ الملكِ: لا والله ما هو التَّحلُّمُ ولكنَّه الحِلمُ.

قالَ: وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: لولا أن أكونَ زُيِّنَ لي مِن أمرِ عبدِ الملكِ ما يُزيَّنُ في عينِ الوالدِ مِن ولدِه لرأيتَ أنَّه أهلٌ للخلافةِ[٢].

ومرادُ عبدِ الملكِ رحمَه اللهُ أنَّ الحلمَ عندَه صفةٌ لازمةٌ له، وهو مجبولٌ عليها، ولا يحتاجُ إلى أنْ يتعاطاه ويتكلَّفَه تكلُّفاً مِن غيرِ أن يكونَ عنده حقيقةً.

وروى الدَّورقيُّ هذه القصَّةَ في كتابِه، وعندَه أنَّ عبدَ الملكِ قالَ لأبيهِ: لا والذي أكرمكَ بما أكرمَك به إنْ مَلَأني غضبٌ قطُّ. والمعنى: ما ملأني الغضبُ قطُّ.

وروى أبو نُعيمٍ في «الحليةِ» بإسنادِه، عن إسماعيلَ بنِ أبي حكيم[٣] قالَ: غَضِبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يوماً فاشتدَّ غضبُه، وكان فيه حدَّةٌ، وعبدُ الملكِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حاضرٌ، فلمَّا سكنَ غضبُه قالَ: يا أميرَ المؤمنينَ! أنت في قدرِ نعمةِ اللهِ عليك وموضعِك الذي وضعكَ اللهُ به وما ولَّاك مِن أمرِ عبادِه يبلغُ بك الغضَبُ ما أرى؟! قالَ: كيفَ قلتَ؟ قالَ: فأعادَ عليه كلامَه، فقالَ له عمرُ: أما تغضبُ

---

(١) في (س): «الغيظ».

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤٤) من طريق ابن أبي الدنيا.

(٣) تصحف في النسختين إلى «الحكم»، وإسماعيل بن أبي حكيم هو كاتب عمر بن عبد العزيز.

يا عبدَ الملكِ؟ قالَ: ما تُغني سعَةُ جوفي إن لم أردِّدْ[1] فيه الغضبَ حتى لا يظهرَ منه شيءٌ أكرهُه، قالَ: وكان له بُطينٌ رحمَه اللهُ تعالى[2].

* * *

(١) في (س): «أرد».

(٢) أخرجه أبو يوسف في «الخراج» (ص: ٢٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٢٤٠)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٨).

البابُ الخامسُ

في ذكرِ كلامِه في قصرِ الأمَلِ والمبادرةِ قبل هُجومِ الموتِ بالعمَلِ:

روى أبو بكرٍ الآجُرِّيُّ في كتابِ «فضائلِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ» أنَّ عمرَ لَمَّا دفَنَ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ خطَبَ النَّاسَ ونزلَ، ثمَّ ذهبَ يَتبوَّأُ مَقيلاً، فأتاه ابنُه عبدُ الملكِ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ! ما تريدُ أن تصنعَ؟ قالَ: أي بنيَّ أقيلُ، قالَ: تقيلُ ولا ترُدُّ المظالمَ؟ فقالَ: أي بنيَّ! إنِّي سهرتُ البارحةَ في أمرِ عمِّكَ سُليمانَ، فإذا صلَّيتُ الظُّهرَ رددتُ المظالمَ، فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ! مَن لك أن تعيشَ إلى الظُّهرِ، قالَ: ادنُ منِّي أي بنيَّ، فدَنا منه فالتزمَه وقبَّلَ بين عينيهِ وقالَ: الحمدُ للهِ الذي أخرجَ مِن صُلبي مَن يُعينُني على ديني، فخرجَ ولم يَقِل وأمرَ مُناديَه أن يُناديَ: ألَا مَن كانت له مَظلمةٌ فليَرْفَعْها[1].

وروى الحافظُ أبو نُعيمٍ بإسنادِه، عن إبراهيمَ بنِ أبي عبلةَ قالَ: جلس عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يوماً للنَّاسِ، فلمَّا انتصفَ النَّهارُ ضَجِرَ وملَّ وكلَّ، فقالَ للنَّاسِ: مكانَكم حتى أنصرِفَ إليكم، فدخلَ ليستريحَ ساعةً، فجاءَ ابنُه عبدُ الملكِ فسأل عنه قالوا: دخلَ، فاستأذنَ عليه فأذِنَ له، فلمَّا دخلَ قالَ: يا أميرَ المؤمنينَ! ما أدخلَك؟ قالَ: أردتُ أن أستريحَ ساعةً، قالَ: أوَأمِنتَ الموتَ أن يأتيَك ورعيَّتُك ينتظرونَك وأنت مُحتجِبٌ عنهم؟ فقامَ عمرُ مِن ساعتِه وخرجَ إلى النَّاسِ[2].

وقالَ ابنُ أبي الدُّنيا في كتابِ «العزاء»: حدَّثَنا محمَّدُ بنُ الحُسينِ، ثنا محمَّدُ بن يحيى بنِ إسماعيلَ، عن أبيهِ قالَ: ماتَ ابنٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فجاءَ عمرُ فقعدَ عند

---

(١) أخرجه الآجري في «أخبار عمر بن عبد العزيز» (ص: ٥٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٩).

رأسِه وكشَفَ الثَّوبَ عن وجهِه، فجعلَ ينظرُ إليه ويَستدمِعُ، فجاءَ عبدُ الملكِ ابنُه فقالَ: أشغلَكَ يا أميرَ المؤمنينَ ما أقبلَ مِن الموتِ إليك عمَّن[1] هو في شغلٍ عمَّا حلَّ لديك، فكأن قد لحقتَ به وساوَيْتَه تحت التُّرابِ بوَجهِك، فبكى عمرُ ثمَّ قالَ: رحمَكَ اللهُ يا بنيَّ، فواللهِ إنَّك لعظيمُ البركةِ، ما عَلِمتُك على أبيكَ نافعَ الموعظةِ لِمَن وعظتَ، وايمُ اللهِ إن كان[2] الذي رأيتَ مِن جَزعي على أخيك، ولكن لما علمتُ أنَّ ملكَ الموتِ دخلَ داري فراعَني دخولُه فكان الذي رأيتَ، ثمَّ أمرَ بجهازِه.

* * *

(١) في (س): «بل».

(٢) أي: ما كان.

البابُ السادسُ

في ذكرِ صلابتِه في الدِّينِ، وقوَّتِه في تنفيذِ الحقِّ، واجتهادِه على الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ، ومواعظِه لأبيه في ذلك:

روينا مِن حديثِ حُسين الجُعفي، عن محمَّدِ بنِ أبانَ قالَ: جمعَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ قرَّاءَ أهلِ الشَّامِ وفيهم ابنُ أبي زكريَّا الخزاعيُّ، فقالَ: إني قد جمعتُكم لأمرٍ قد أهمَّني[١]، هذه المظالمُ التي في أيدي أهلِ بيتي ما ترونَ فيها؟ فقالوا: ما نرى وِزرَها إلا على مَن اغتصبَها[٢]، قالَ: فقالَ لعبدِ الملكِ ابنِه: ما ترى أي بنيَّ؟ قالَ: ما أرى مَن قدرَ على أن يردَّها فلم يردَّها والذي اغتصبَها إلا سواءً، فقالَ: صدقتَ أي بنيَّ، ثم قالَ: الحمدُ للهِ الذي جعلَ لي وزيراً مِن أهلي عبدَ الملكِ ابني[٣].

وروى الحافظُ أبو نُعيمٍ بإسنادِه إلى ميمونَ بنِ مهرانَ قالَ: بعثَ إليَّ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ وإلى مكحولٍ وإلى أبي قِلابةَ، فقالَ: ما ترونَ في هذه الأموالِ التي أُخِذَت مِن النَّاسِ ظُلماً؟ فقالَ مَكحولٌ يومئذٍ قولاً ضعيفاً كرِهَه، قالَ: أرى أن تستأنف[٤]، فنظرَ إليَّ عمرُ كالمُستغيثِ بي، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ! ابعَث إلى عبدِ الملكِ فأحضِرْه، فإنَّه ليس بدونِ مَن رأيتَ، فلمَّا دخلَ عليه قالَ: يا عبدَ الملكِ! ما ترى في هذه الأموالِ التي قد أُخِذَت مِن النَّاسِ ظُلماً وقد حضَروا يطلبونَها وقد عرَفْنا مَواضِعَها، قالَ: أرى أن تَرُدَّها، فإن لم تفعَلْ كنتَ شريكاً لِمَن أخَذَها[٥].

---

(١) في (س): «قد أهمتني هذه المظالم».

(٢) في (س): «غصبها».

(٣) أخرجه محمد بن عاصم في «جزء حديثه» (٤)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤٧).

(٤) في (س): «فكرهه فقال». وفي النسختين: «أتستأنف» سقطت النون.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤٧).

وروى يعقوبُ بنُ سُفيانَ بإسنادِه، عن جويريةَ بنِ أسماءَ، عن إسماعيلَ بنِ أبي حكيم[١] قالَ: كنَّا عند عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حين تفرَّقَ النَّاسُ ودخلَ للقائلةِ، فإذا مُنادٍ يُنادي: الصَّلاةَ جامعةً، ففزعنا فزَعاً شديداً مخافةَ أن يكونَ قد جاء فتقٌ مِن وجهٍ مِن الوجوهِ أو حدَثَ حدَثٌ.

قالَ جويريةُ: وإنَّما كان دعا مُزاحِماً ـ يعني مولاه ـ فقالَ: يا مُزاحمُ! إنَّ هؤلاءِ القومَ ـ يعني بني عمِّه مِن الخُلَفاءِ الذين كانوا قبلَه ـ قد أعطَوْنا عطايا واللهِ ما كان لهم أنْ يُعطوناها[٢]، وما كان لنا أن نَقبلَها، وإنَّ ذلك قد صارَ إليَّ، وليس عليَّ فيه دونَ اللهِ مُحاسِبٌ، فقالَ له مُزاحِمٌ: يا أميرَ المؤمنينَ! هل تدري كم ولدُك؟ هم كذا وكذا، فذرفَتْ عيناه وجعلَ[٣] يَستدمِعُ ويقولُ: أَكِلُهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ.

ثمَّ انطلقَ مُزاحِمٌ مِن وجهِه ذلك حتى استأذنَ على عبد الملكِ بنِ عمرَ، فأذِنَ له وقد اضطجعَ للقائلةِ، فقالَ له عبدُ الملك: ما جاء بك يا مُزاحِمُ هذه السَّاعةَ؟ هل حدثَ مِن حدثٍ؟ قالَ: أشدُّ الحدَثِ عليك وعلى بني أبيكَ، قالَ: وما ذاك؟ قالَ: دعاني أميرُ المؤمنينَ.. ، فذكرَ له ما قالَ عمرُ، فقالَ عبدُ الملكِ: فما قلتَ له؟ قالَ: قلتُ له: يا أميرَ المؤمنينَ هل تدري كم [ولدك؟][٤] هم كذا وكذا، قالَ: فما قالَ لك؟ قالَ: جعلَ يَستدمِعُ ويقولُ: أكِلُهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فقالَ عبدُ الملكِ: بئس وزيرُ الدِّينِ أنت يا مُزاحمُ.

ثمَّ وثبَ وانطلقَ إلى بابِ عمرَ فاستأذنَ عليه، فقالَ الآذِنُ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ

---

(١) تصحفت في النسختين إلى: «الحكم».

(٢) في (س): «أن يعطونا إياها».

(٣) في (س): «فجعل».

(٤) سقطت اللفظة من النسختين، وهي ثابتة في المصدر.

قد وضعَ رأسَه للقائلةِ، فقالَ: استأذِن لي، قالَ الآذنُ: أما ترحموهُ ليس له مِن الليلِ والنَّهارِ إلَّا هذه الوقعةُ، قالَ عبدُ الملكِ: استأذِنْ لي لا أمَّ لك، قالَ: فسمِعَ عمرُ الكلامَ فقالَ: مَن هذا؟ قالَ: هذا عبدُ الملكِ، قالَ: ائذَن له، فدخلَ عليه وقد اضطجعَ عمرُ للقائلةِ، فقالَ: ما حاجتُك يا بنيَّ هذه السَّاعةَ؟ قالَ: حديثٌ حدَّثنيهِ مُزاحِمٌ، قالَ: فأينَ وقعَ رأيُك مِن ذلك؟ قالَ: وقعَ رأيي على إنفاذِه، قالَ: فرفعَ عمرُ يدَه ثمَّ قالَ[1]: الحمدُ للهِ الذي جعلَ مِن ذُرِّيَّتي مَن يُعينُني على ديني، نعم يا بنيَّ، أُصَلِّي الظُّهرَ ثمَّ أصعدُ المنبرَ فأردُّها عَلانيةً على رؤوسِ النَّاسِ، فقالَ عبدُ الملكِ: ومَن لك بالظُّهرِ يا أمير المؤمنينَ؟ ومَن لك إن بقيتَ إلى الظُّهرِ أنْ تسلمَ لك نيَّتُك إلى الظُّهرِ؟ فقالَ عمرُ: قد تفرَّقَ النَّاسُ ورجَعوا للقائلةِ، فقالَ عبدُ الملكِ: تأمرُ مُناديكَ فيُنادي الصَّلاةَ جامعةً، فيجتمِعُ النَّاسُ.

قالَ إسماعيلُ: فنادى المنادي: الصَّلاةَ جامعةٌ، فخرجتُ فأتيتُ المسجدَ، وجاء عمرُ فصعِدَ المنبرَ فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قالَ:

أمَّا بعدُ، فإنَّ هؤلاءِ القومَ قد كانوا أعطَوْنا عطايا، واللهِ ما كان لهم أن يُعطوناها وما كانَ لنا أن نقبلَها[2]، وإنَّ ذلك قد صارَ إليَّ ليس عليَّ فيه دونَ اللهِ تعالى مُحاسِبٌ، ألَا وإنِّي قد ردَدتُها وبدأتُ بنفسي وأهلِ بيتي.

اقرَأْ يا مُزاحِمُ، قالَ: وجيءَ بسفطٍ ـ أو قالَ: جَونةٍ ـ فيها تلك الكتبُ[3]، يعني كتبَ الإقطاعاتِ، قالَ: فقرأَ مُزاحِمٌ كتاباً منها، فلمَّا فرغَ مِن قراءتِه ناولَه عمرَ وهو قاعدٌ على المنبرِ، فقصَّه بالجَلْم ـ يعني المقراضَ ـ ، فاستأنفَ مُزاحِمٌ كتاباً آخرَ

(١) في (س): «يديه وقال».

(٢) في (س): «أن نقبلها منهم».

(٣) الجَونة: الخابية. وضبطها في (م): جُونة، والجُونة: سلة يضع فيها العطار عطورَه.

فجعلَ يقرأُ، فلمَّا فرغ منه دَفَعَه إلى عُمرَ فقصَّه، ثمَّ استأنفَ كتاباً آخرَ فما زالَ كذلك حتى نُودِيَ لصَلاةِ الظُّهرِ[١].

والمرادُ مِن هذهِ الحكايةِ أنَّ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهُ ردَّ الأراضيَ التي كانت في يدِه ممَّا أقطعَه إيَّاه بنو عمِّه الخُلفاءُ قبلَه، فردَّ ذلك كلَّه إلى بيتِ المالِ، ولم يبقَ في يدهِ منها شيءٌ، وأنَّ عبدَ الملكِ ابنَه حثَّه على فعلِ ذلك وعلى المبادرةِ إليه حين عزَمَ عليه خشيةَ أن تنفسِخَ عزيمتُه عن ذلك إنْ أخَّرَه إلى صلاةِ الظُّهرِ أو يموتَ قبلَ فعلِه.

وروى الحافظُ أبو نُعيمٍ بإسنادٍ له، أنَّ عبدَ الملك دخلَ على أبيهِ عمرَ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ! ماذا تقولُ لربِّكَ إذا أتيتَه وقد تركتَ حقًّا لم تُحيِه وباطلاً لم تُمِتْه[٢]؟

وبإسنادٍ آخرَ له: أنَّ عبدَ الملكِ بنَ عمرَ دخلَ على أبيهِ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ! إنَّ لي إليكَ حاجةً فأخلِني[٣]، وعندَه مَسلمَةُ بنُ عبدِ الملكِ، فقالَ له عمرُ: أسِرٌّ دونَ عَمِّك؟ فقالَ: نعم، فقامَ مَسلمةُ فخرَجَ، وجلسَ عبدُ الملكِ بين يديهِ، فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ! ماذا أنتَ قائلٌ لربِّكَ غداً إذا سألكَ فقالَ: رأيتَ بدعةً فلم تُمِتْها، أو سُنَّةً فلم تُحيِها؟ فقالَ له: يا بنيَّ! أشيءٌ حمَّلَكَه الرَّعيَّةُ إليَّ أم رأيٌ رأيتَه مِن قِبَلِ نفسِك؟ قالَ: لا واللهِ ولكن رأيٌ رأيتُه مِن قِبَلِ نفسي، وعرفتُ أنَّك مَسؤولٌ فما أنتَ قائلٌ؟ فقالَ له أبوهُ: رَحِمَك اللهُ وجزاكَ مِن ولَدٍ[٤] خيراً، فواللهِ إنِّي لأرجو أن تكونَ مِن

---

(١) أخرجه يعقوب بن سفيان الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦١٥ ـ ٦١٧). وروى أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٥٥) أجزاء منه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٥).

(٣) تصحفت في (س) إلى: «فأدخلني».

(٤) في (س): «والدك». والمثبت من (م) موافق «للحلية».

الأعوانِ على الخيرِ، يا بنيَّ! إنَّ قومَك قد شدُّوا هذا الأمرَ عُقدةً عُقدةً وعُروةً عُروةً، ومتى أريدُ مُكابرتَهم على انتزاعِ ما في أيديهم لم آمَن أن يَفتقوا عليَّ فتقاً تكثرُ فيه الدِّماءُ، واللهِ لَزوالُ الدُّنيا أهوَنُ مِن أنْ يُهراقَ في نصبتِي محجمةٌ مِن دمٍ، أوَما ترْضى أن لا يأتيَ[1] على أبيك يومٌ مِن أيَّامِ الدُّنيا إلَّا وهو يميتُ فيه بِدعةً ويحيي فيه سنَّةً حتى يحكمَ اللهُ بينَنا وبين قومِنا بالحقِّ وهو خيرُ الحاكمينَ[2].

وروى عبدُ اللهِ بنُ الإمامِ أحمدَ في كتابِ «الزهد» بإسنادِه، عن ابنِ شَوْذَبٍ قالَ: جاءتِ امرأةُ عبدِ الملكِ بنِ عمرَ إليه وقد ترجَّلَت ولبِسَت إزاراً ورداءً ونعلينِ، فلمَّا رآها قالَ: اعتَدِّي اعتَدِّي[3].

وقولُه: (اعتَدِّي) كنايةٌ عن الطَّلاقِ، وإنَّما طلَّقَها لَمَّا رآها قد تشبَّهَت بالرِّجالِ في اللِّباسِ، وقد لعنَ رسولُ اللهِ ﷺ مَن تشبَّهَ مِن النِّساءِ بالرِّجالِ، كما لعنَ مَن تشبَّه مِن الرِّجالِ بالنِّساءِ[4].

***

(١) في (س): «أوما ترى أن يأتي»!!

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٤) من طريق عبد الله بن الإمام أحمد.

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

البابُ السَّابعُ

في ذكرِ هوانِ نفسِه عليه في ذاتِ اللهِ، ورضاه بكلِّ ما ينالُه مِن الأذى في تنفيذِ أوامرِ اللهِ عزَّ وجلَّ:

روى الإمامُ أحمد في كتابِ «الزهد» بإسنادِه، عن مَيمونِ بنِ مهرانَ، أنَّ عبدَ الملكِ بنَ عمرَ قالَ لأبيه يوماً: يا أبَه! ما منَعَك أن تمضيَ لِمَا تريدُ مِن العدلِ، فواللهِ ما كنتُ أُبالي لو غلَتْ بي وبكَ القدورُ في ذلك[١].

وقالَ جويريةُ بنُ أسماءَ: قالَ عبدُ الملكِ بنُ عمرَ: يا أميرَ المؤمنينَ! ما منعكَ أن تُنفِذَ رأيكَ في هذا الأمرِ، فواللهِ ما كنتُ أُبالي أن تَغْليَ بي وبكَ القُدورِ في نَفاذِ هذا الأمرِ[٢].

وقالَ الرَّبيعُ بنُ سَبْرةَ: قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يوماً: واللهِ لوَدِدتُ لو عدلتُ يوماً واحداً وأنَّ اللهَ توفَّى نفسي، فقالَ له ابنُه عبدِ الملكِ: وأنا واللهِ لوَدِدْتُ لو عدلتَ فواقَ ناقةٍ، وأنَّ اللهَ توفَّى نفسي، فقالَ عمرُ: آللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو؟، فقالَ عبدُ الملكِ: آللهِ الذي لا إلهَ إلا هوَ، ولو جاشَتْ بي وبكَ القُدورُ، فقالَ له عمرُ: جزاكَ اللهُ خيراً[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٧٢٩)، وتمامه: «فقال عمر: يا بني إنما أنا أروض الناس رياضة الصعب، إني لا أريد أن أحيي الأمر من العدل فأوخره حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا فينفروا من هذه ويسكنوا لهذه».

(٢) أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦١٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٢٣٩) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٨١).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٣٨٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٥٠).

وقالَ سُليمانُ بنُ حبيبٍ المُحاربيُّ: قالَ عبدُ الملكِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: واللهِ ما مِن أحدٍ أعزُّ عليَّ مِن عمرَ، ولَأنْ أكونَ سَمِعتُ بمَوتِه أحبُّ إليَّ مِن أنْ أكونَ كما رأيتُه[١].

قلْتُ: العارفونَ باللهِ، المحبُّونَ له يَرْضونَ بما تقضيهِ[٢] مَقاديرُه وإن كانت شاقَّةً على النُّفوسِ مُؤلمةً لها، ويَتلذَّذونَ بذلك، ولا سيَّما إن كان أذاهم في تَنفيذِ أوامرِ اللهِ والدُّعاءِ إلى طاعةِ اللهِ، وكان هذا مقامُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وابنِه عبدِ الملكِ رضِيَ اللهُ عنهُما، وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ قد رسَخَ في هذا المقامِ الرَّفيعِ، حتَّى كانَ يقولُ: أصبحتُ وما لي سرورٌ إلَّا في مواقع القضاءِ والقدَرِ[٣].

وكان أبو تُرابٍ النَّخْشبيُّ ـ وهو مِن أعيانِ مَشايخِ العارفينَ ـ يُنشِدُ هذه الأبياتَ:

لا تُخدعَنَّ فلِلمُحِبِّ دَلائلُ ... ولَديهِ مِن تُحَفِ الحبيبِ وَسائِلُ

مِنها تَنعُّمُه بمُرِّ بَلائِه ... وسُرورُه في كلِّ ما هوَ فاعِلُ

فالمَنعُ مِنه عطيَّةٌ مَقبولةٌ ... والفقرُ إكرامٌ وبِرٌّ عاجِلُ[٤]

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٤).

(٢) في (س): «تقتضيه».

(٣) ذكره ابن عبد الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص: ٩٧). وذكره المصنف في عدد من كتبه. وتصحفت «مواقع» في (س) إلى: «مواضع» وكذلك تصحفت في عدد من المصادر.

(٤) ذكرها في أبيات أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ١٠٣)، وذكرها المصنف في عدد من كتبه.

البابُ الثَّامنُ

في ذكرِ شدَّةِ حذَرِه مِن الظُّلمِ وتَنزُّهِه مِن ذلك:

كان عبدُ الملِكِ رحمَه اللهُ يكرَهُ أن يُدخِلَ نفسَه في تأديبِ أهلِ الفسادِ خشيةَ أن يتعدَّى الحُدودَ الشَّرعيَّةَ وهو غيرُ قاصدٍ لذلك، أو خشيةَ أن يُنسبَ إلى ظُلمٍ وهو منه بريءٌ.

فروَى أبو عبدِ اللهِ ابنُ بطَّةَ الفقيهُ الزَّاهدُ المُجابُ الدَّعوةِ ـ وهو مِن أعيانِ عُلَماءِ الحَنابلةِ ـ في كتابِ «الحمَّام» له بإسنادِه: عن ميمونِ بنِ مهرانَ قالَ: أتيتُ عبدَ الملكِ بنَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ فاستأذنتُ عليه فقعدتُ عندَه ساعةً فأُعجِبتُ به إذ جاءَ[1] الغُلامُ فقالَ: قد فَرَغنا ممَّا أمَرْتَنا به، قالَ: قلتُ: وما ذاك؟ قالَ الحمَّامُ أمَرْتُه أن يُخلِيَه لي، قلتُ: آه آه، قد[2] كنتُ أُعجِبتُ بك حتى سَمِعتُ هذه، قالَ: وما ذاك يا عمَّاه؟ قالَ: أرأيتَ الحمَّامَ مِلكاً لك؟ قالَ: لا، قلتُ: فما الذي يَحمِلُك على أنْ تصُدَّ عنه غاشِيَتَه وتُعطِّلَه على أهلِه؟ قالَ: إن[3] أُعطِّلُه عليه فأنا أُعطيهِ غلَّةَ يومِه، قلتُ: وهذه نفقةُ كبرٍ خلَطَها إسرافٌ، كأنَّكَ تُريدُ بذلك الأُبَّهةَ وإنما أنت رجلٌ مِن المسلمينَ كأحدِهم، عزَّ بك[4] أنْ تكونَ مثلَهم؟ قالَ: فقالَ: والذي عظَّمَ مِن حقِّكَ ما يَمنعُني أن أدخُلَ معَهم إلَّا أنْ أرى قَوْماً رعاعاً بغيرِ ميازرَ وأكرهُ[5] أن أُؤدِّبَهم على الأُزرِ[6] فيصفونَ ذلك على سُلطانِنا خلَّصَنا اللهُ مِنه كفافاً، قالَ: قلتُ: تدخلُه ليلاً، قالَ: أفعلُ، ولولا بردُ بلادِنا ما دخلتُه ليلاً ولا نهاراً[7].

---

(١) في (س): «فجاء».

(٢) في (س): «قلت: إني».

(٣) في (م): «أنا».

(٤) في (س): «يجزيك» تصحيف.

(٥) في (س): «فأكره».

(٦) في (س): «الإزار».

(٧) وقد سبق ذكره أواخر الباب الثالث.

البابُ التاسعُ

في ذكرِ مرَضِه ووَفاتِه رضِيَ اللهُ عنهُ:

قالَ ابنُ أبي الدُّنيا: حدَّثَنا عليُّ بنُ مُسلمٍ قالَ: حدَّثنا سعيدُ بنُ عامرٍ قالَ: قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لعبدِ الملكِ ابنِه: ما شيءٌ كنتُ أُحِبُّ أن أراهُ فيك إلَّا قد رأيتُه إلَّا شيئاً واحداً، قالَ: ما هو؟ قالَ: موتُك، قالَ: أراكَه اللهُ[١].

وروى الحافظُ أبو نُعَيمٍ بإسنادِه، عن سليمانَ بنِ حبيبٍ المُحارِبيِّ: أنَّ عبدَ الملكِ بنَ عمرَ أصابَه الطَّاعونُ في خلافةِ أبيهِ فماتَ[٢].

وروى ابنُ أبي الدُّنيا بإسنادِه، عن شيخٍ مِن قُرَيشٍ قالَ: دخلَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ على ابنِه في وجعِه فقالَ: يا بنيَّ! كيفَ تجِدُك؟ قالَ: أجِدُني في الحقِّ، قالَ: يا بنيَّ! لإنْ تكن[٣] في ميزاني أحبَّ إليَّ مِن أن أكونَ في ميزانِك، فقالَ ابنُه: وأنا يا أبَه! لأن يكون ما تُحِبُّ أحَبُّ إليَّ مِن أن يكونَ ما أُحِبُّ[٤].

وروى أيضاً بإسنادِه، عن زيادِ بنِ [أبي][٥] حسَّانَ، أنَّه شَهِدَ عُمرَ بنَ عبدِ العزيزِ حين دفنَ ابنَه عبدَ الملكِ، قالَ: فلمَّا سُوِّيَ عليه قبرُه بالأرضِ، وجعَلوا في قبرِه خَشبتينِ مِن زيتونٍ إحداهُما عند رأسِه والأخرى عند رِجليهِ، ثمَّ جعلَ قبرَه بينَه وبين القبلةِ، ثمَّ استوى قائماً وأحاطَ به النَّاسُ فقالَ: رَحِمَكَ اللهُ يا بنيَّ! فلقد كنتَ بَرًّا بأبيكَ، وما زلتَ منذ وهَبَك اللهُ لي بكَ مَسروراً، ولا واللهِ ما كنتُ قطُّ أشَدَّ سروراً

---

(١) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٤).

(٣) في (س): «إن تكن».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١٥٥)، وأخرجه المدائني في «التعازي» (٢٠).

(٥) «أبي» سقطت من النسختين، ولا بد منها، وهي ثابتة في مصادر التخريج.

ولا أرجى لحظِّي مِن اللهِ فيكَ منذُ وضعتُكَ في الموضعِ الذي صيَّرَكَ اللهُ إليه، فرَحِمَكَ اللهُ وغفرَ ذنبكَ، وجزاكَ بأحسنِ عَمَلِك وتجاوزَ عن سيِّئِه، ورَحِمَ كلَّ شافعٍ يشفَعُ لكَ بخيرٍ مِن شاهدٍ وغائبٍ، رضينا بقَضاءِ اللهِ، وسلَّمْنا لأمرِه، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، ثمَّ انصرَفَ رحمَه اللهُ تعالى[١].

وروَى أبو نُعيمٍ الحافظُ بإسنادٍ له: أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ كتبَ إلى عبدِ الحميدِ نائبِه على الكوفةِ كِتاباً يَنهى فيه[٢]: أن لا يُناحَ على ابنِه كما كانت عادةُ النَّاسِ حينئذٍ في النِّياحةِ على المُلوكِ وأولادِهم، وفيه:

إنَّ عبدَ الملكِ ابنَ أميرِ المؤمنينَ كان عبداً مِن عبادِ اللهِ، أحسنَ اللهُ إليه في نفسِه، وأحسنَ إلى أبيهِ فيه، أعاشَه اللهُ ما أحَبَّ أن يُعيشَه، ثمَّ قبَضَه إليه حين أحَبَّ أنْ يَقبِضَه، وهو فيما عَلِمتُ بالموتِ مُغتبِطٌ، نرجو فيهِ مِن اللهِ رَجاءً حسَناً، فأعوذُ باللهِ أنْ تكونَ لي محبَّةٌ في شيءٍ مِن الأمورِ تُخالِفُ مَحبَّةَ اللهِ؛ فإنَّ خلافَ ذلك لا يَصلحُ في بلائِه عندي وإحسانِه إليَّ ونعمتِه عليَّ.

ثمَّ قالَ: أحببتُ أنْ أكتبَ إليك بذلك، وأُعلِمَكَه مِن قضاءِ اللهِ، فلا أعلَمُ ما نيحَ عليه في شيءٍ مِن قبلِك، ولا اجتمعَ على ذلك أحدٌ مِن النَّاسِ، ولا رخَّصْتُ فيه لقريبٍ ولا لبَعيدٍ، واكفِني ذلك بكفايةِ اللهِ، ولا أَلومنَّكَ فيه إنْ شاءَ اللهُ، والسَّلامُ عليك[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٧٣١)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٥٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٥١).

(٢) ينهى فيه: يُخبِر.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٧)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله بقضائه» (٨٢) مختصراً.

وروى الإمامُ أحمدُ بإسنادٍ له: أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ تتابعَتْ عليه مَصائبُ: ماتَ أخٌ له، ثمَّ ماتَ مُزاحِمٌ مولاه، ثمَّ ماتَ عبدُ الملكِ ابنُه، فلمَّا ماتَ عبدُ الملكِ رحمَهُ اللهُ حَمِدَ اللهَ وأَثْنى عليه، ثمَّ قالَ: لقد دفعَتْهُ إليَّ النِّساءُ في الخِرَقِ، فما زلتُ أرى فيه السُّرورَ وقُرَّةَ العينِ إلى يَومي هذا، فما رأيتُ فيه أمْراً قطُّ أقرَّ لعيني مِن أمرٍ قد رأيتُه فيه اليومَ[1].

قالَ الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ: لَمَّا هلَكَ عبدُ الملكِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ قالَ أبوه: يا بنيَّ! لقد كنتَ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وإنِّي لأرجو أن تكونَ اليومَ مِن الباقياتِ الصَّالحاتِ التي هي خيرٌ ثَواباً وخيرٌ أمَلاً، واللهِ ما يَسرُّني أنِّي دعوتُكَ فأجبتَني[2].

وذكرَ ابنُ المُؤدِّبِ في «مناقب عمر بن عبدِ العزيزِ» بإسنادِه، عن عليِّ بنِ خالدِ بنِ يزيدَ[3] قالَ: لَمَّا ماتَ عبدُ الملكِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ دخلَ عمرُ فنظَرَ إليهِ، وخرجَ[4] وهو يَتمثَّلُ:

[لا يَغُرَنَّكْ عشاءٌ ساكِنٌ قد تُوافَى بالمنيَّاتِ السَّحَرْ][5]

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٧) من طريق الإمام أحمد.

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٥١).

(٣) في «التعازي»: «عن علي بن خالد، عن يزيد بن بشر». وصواب السند: عن علي، عن خالد بن يزيد.

علي: هو المدائني صاحب كتاب «التعازي». انظر: ترجمة خالد بن يزيد بن بشر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٢٨٤).

(٤) في (س): «فخرج».

(٥) سقط بيت الشعر من النسختين، واستدرك مما أخرجه المدائني في «التعازي» (١٠).

وروى أبو نُعَيم بإسنادٍ له: أنَّ عبدَ الملكِ بنَ عمرَ لَمَّا ماتَ عزَّى النَّاسُ أباه، فعزَّاهُ أَعرابيٌّ مِن بني كلابٍ:

تَعَزَّ أميرَ المُؤمنينَ فإنَّه ... لِمَا قَدْ تَرَى يُغذَى الصَّغيرُ ويُولَدُ

هلِ ابنُكَ إلَّا مِن سُلالةِ آدَمٍ ... لكلٍّ على حَوضِ المَنِيَّةِ مَوردُ

فمَا وَقعَتْ منه تَعزيةُ أحدٍ ما وقعَتْ تَعزيَةُ الأعرابيِّ[1].

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٩)، وكذا أخرجه المدائني في «التعازي» (١٧)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/ ٧٠٠)، والبلاذري في «أنساب الأشراف» (٨/ ٢٠٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٥١).

البابُ العاشرُ

في ذكرِ سنِّهِ ومِقدارِ عُمرِهِ:

روى محمَّدُ بنُ عثمانَ بنِ أبي شيبةَ، عن مِنجابِ بنِ الحارثِ، عن يحيى بنِ عبدِ الملكِ بنِ أبي غنيةَ[١]، أنَّ عبدَ الملكِ بنَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ كان ابنَ تسعَ عشرةَ سنةً حينَ ماتَ رحمَهُ اللهُ[٢].

وذكرَ القاضي أبو عبدِ اللهِ القُضاعيُّ في كتابِ «تاريخ الخلفاء» قالَ: عاشَ عبدُ الملكِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ تسعَ عشرةَ سنةً ونصفاً[٣].

وذكرَ أبو الفرَجِ ابنُ الجوزيِّ في كتابِ «أعمار الأعيان» له قالَ: عبدُ الملكِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: لا يُتيقَّنُ عمرُه، ولكنَّه ماتَ صَبِيًّا في حياةِ أبيهِ، رحمَهما اللهُ تعالى[٤].

* * *

(١) تصحف في النسختين إلى: «عتبة».

(٢) وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٥٣).

(٣) «عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف» للقضاعي (ص: ٣٦٣).

(٤) «أعمار الأعيان» لابن الجوزي (ص: ١٥).

البابُ الحادي عشرَ

في ثناءِ العُلَماءِ عليه ومَدحِهم له:

* فمِنهم: أبوه أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضِيَ اللهُ عنهُ، وقد سبقَ بعضُ كلامِه في ثنائِه عليه.

وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ شديدَ الحبِّ لابنِه عبدِ الملكِ والإعجابِ به وبدينه، ولكنَّه كان لشدَّةِ خوفِه وقوَّةِ وَرَعِه يخافُ أن لا يكونَ ابنُه في الأمرِ كذلك، وأنَّه زُيِّنَ له فيه ما يُزَيَّنُ للوالدِ مِن ولدِه فكانَ يتوقَّفُ أحياناً ويسألُ غيرَه عنه، وقد ذكَرْنا بعضَ ذلك فيما تقدَّمَ.

وروى الدَّورَقيُّ بإسنادٍ له: أنَّ عمرَ قالَ لابنِه عبدِ الملكِ يوماً: يا عبدَ الملكِ! إنِّي أُخبِرُكَ خبراً، لا واللهِ إن رأيتُ[1] فتًى ماشياً قطُّ أنْسَكَ منكَ نُسكاً، ولا أفْقَهَ فِقهاً، ولا أقرَأَ مِنك، ولا أبعدَ مِن صَبوةٍ في صِغَرٍ ولا كِبَرٍ[2].

قالَ: وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: واللهِ لولا أن يكونَ بي زينةٌ مِن أمرِ عبدِ الملكِ ما يُزَيَّنُ في عينِ الوالدِ مِن ولده[3] لرَأَيتُ أنَّه أهلٌ للخِلافةِ[4].

وبإسنادٍ آخرَ له: أنَّ عبدَ الملكِ لَمَّا تُوفِّيَ جعلَ أبوهُ يُثني عليهِ عند قبرِه، فقالَ له رجلٌ: يا أميرَ المؤمنينَ لو بقِيَ كنتَ تعهَدُ إليه؟ قالَ: لا، قالَ: لِمَ؟ وأنتَ تُثني عليه، قالَ: أخافُ أن يكونَ زُيِّنَ في عيني منه ما زُيِّنَ[5] في عينِ الوالدِ مِن ولدِه[6].

---

(١) يعني: ما رأيت.

(٢) تصحفت في (س) إلى: «في صغير ولا كبير». وهذا النقل انفرد به المصنف رحمه الله.

(٣) في (م): «الولد».

(٤) ذكر نحوه الزمخشري في «ربيع الأبرار» (٢/ ٢٢٤). وجاء في (م): «أهلًا للخلافة»!

(٥) في (س): «يزين».

(٦) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٦٧). والقائل السائل هو مسلمة بن عبد الملك.

* ومنهم: ميمونُ بنُ مهرانَ، مِن أعيانِ عُلَماءِ التَّابعينَ، وكان خَصِيصاً بعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وقد تقدَّمَ بعضُ ذكرِ ثنائِه على عبدِ الملكِ.

وروى الإمامُ أحمدُ بإسنادِه، عن ميمونِ بنِ مهرانَ قالَ: ما رأيتُ ثلاثةً في بيتٍ خيراً مِن عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ وابنِه عبدِ الملكِ ومولاه مُزاحمٍ[1].

* ومنهم: الرَّبيعُ بنُ سَبْرةَ، روى ابنُ أبي الدُّنيا بإسنادِه، عن الرَّبيعِ بنِ سَبْرةَ أنَّه دخلَ على عمرَ بن عبدِ العزيزِ لَمَّا هلكَ ابنُه عبدُ الملكِ وأخوهُ سهلٌ ومُزاحِمٌ مولاه في أيَّامٍ مُتَتابعةٍ، فقالَ له الرَّبيعُ: أعظمَ اللهُ أجرَكَ[2] يا أميرَ المؤمنينَ، فما رأيتُ أحَداً أُصيبَ بأعظمَ مِن مُصيبتِكَ في أيَّامٍ مُتَتابعةٍ، واللهِ ما رأيتُ مثلَ ابنِكَ ابناً، ولا مثلَ أخيك أخاً، ولا مثلَ مولاك مولًى قطُّ[3].

* ومِنهم: سيَّارٌ أبو الحكمِ الزَّاهدُ، روى أبو نُعَيمٍ بإسنادِه، عن سيَّارٍ أبي الحكَمِ أنَّه قالَ: قالَ ابنٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ـ يقالَ له: عبدُ الملكِ، وكان يُفَضَّلُ على أبيه عمرَ ـ: يا أبَه! أقمِ الحقَّ ولو ساعةً مِن نهارٍ[4].

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٧٣٠).

(٢) في (س): «جزاءك».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (٨٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٣).

فصلٌ

وهذه نبذةٌ يسيرةٌ مختصرةٌ مِن سيرةِ والدِ عبدِ الملكِ: أميرِ المؤمنين أبي حفصٍ عمرَ بن عبدِ العزيزِ رضِيَ اللهُ عنهُ ونفع بها

قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لصاحبِ حرسِه عمرِو بنِ مُهاجرٍ: إذا رأيتَني قد ملتُ عن الحقِّ فضَعْ يدكَ في تلبابي[١]، ثمَّ هُزَّني، ثمَّ قل لي: يا عمرُ! ما تصنَعُ[٢]؟

وكتبَ عمرُ إلى المسلمينَ كِتاباً يُقرَأُ عليهم بالموسمِ بمكَّةَ:

أمَّا بعدُ: فإنِّي أُشهِدُ اللهَ وأبرأُ إليه في الشَّهرِ الحرامِ والبلَدِ الحرامِ ويومَ الحجِّ الأكبَرِ: أنِّي بريءٌ مِن ظُلمِ مَن ظَلَمَكم وعُدوانِ مَن اعتدَى عليكم[٣]، أنْ أكونَ أَمَرتُ بذلك أو رَضيتُ به أو تعمَّدْتُه، إلَّا أن يكونَ وَهْماً منِّي أو[٤] أمراً خَفِيَ عليَّ لم أَتعمَّدْه[٥]، وأرجو أن يكونَ ذلك موضوعاً عنِّي مَغفوراً لي إذا عَلِمَ منِّي الحرصَ والاجتهادَ، ألَا وإنَّه لا إذنَ على المظلومِ[٦] دوني وأنا معولُ [كلِّ][٧] مظلومٍ.

ألَا وأيُّ عاملٍ مِن عمَّالي رَغِبَ عنِ الحقِّ ولم يعمَلْ بالكتابِ والسُّنَّةِ فلا طاعةَ له عليكُم، وقد صيَّرتُ أمرَه إليكم حتى يراجِعَ الحقَّ وهو ذميمٌ، ألَا وإنَّه لا دُوْلةَ بين أغنيائِكم، ولا أَثَرَةَ على فقرائِكم في شيءٍ مِن فيئِكم، ألَا وأيُّما واردٍ

---

(١) مجمع ردائه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٢).

(٣) في (س): «عاداكم».

(٤) في (م): «و».

(٥) في (س): «ولم أتعمده».

(٦) في (م): «عَلَيَّ لمظلوم».

(٧) سقطت من النسختين، واستدركت من المصدر.

ورَدَ في أمرٍ يُصلِحُ اللهُ بهِ خاصًّا أو عامًّا مِن هذا الدِّينِ فله ما بين مائةِ دينارٍ إلى ثلاثمائةِ دينارٍ على قدرِ ما نوى مِن الحسَنةِ وتجشَّمَ مِن المشقَّةِ، فرَحِمَ اللهُ امْرَأً لم يَتعاظَمْهُ سَفَرٌ يُحيي اللهُ بهِ حقًّا لِمَن وراءَه، ولولا أن أشغلَكم عن مناسكِكُم لرَسَمتُ لكم أموراً من الحقِّ أحياها اللهُ لكم، وأموراً مِن الباطلِ أماتَها اللهُ عنكم، وكان اللهُ هو المتوحِّدُ بذلك، فلا تحمَدوا غيرَه، فإنَّه لو وَكَلني إلى نفسي كنتُ كغيري، والسَّلامُ عليكُم[1].

وكتبَ بعضُ عمَّالِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ إليه:

أمَّا بعدُ: فإنَّ مَدينتَنا قد خَرِبَت؛ فإنْ رأى أميرُ المؤمنينَ أن يُقطِعَ لنا مالاً نرمُّها[2] به فعلَ.

فكتبَ إليهِ:

أمَّا بعدُ: فقد فهِمتُ كتابَك، وما ذكرتَ أنَّ مدينتكم قد خَرِبَت، فإذا قرَأْتَ كِتابي هذا فحَصِّنْها[3] بالعدلِ، ونقِّ طرُقَها مِن الظُّلمِ، فإنَّه مَرَمَّتُها، والسَّلامُ[4].

وكتبَ إليه بعضُ عمَّالِه أيضاً: إنَّ قِبَلي ناساً مِن العمَّالِ قد اقتطَعوا مِن مالِ اللهِ مالاً عظيماً، لستُ أقدِرُ على استخراجِه[5] مِنهم إلَّا أنْ يَمسَّهم شيءٌ مِن العذابِ، فإن رأى أميرُ المؤمنينَ أنْ يأذنَ لي في شيءٍ مِن ذلك.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).

(٢) في (س): «نعمرها».

(٣) في (س): «فأحصنها».

(٤) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٢٨٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٠٥).

(٥) في (س): «إخراجه».

فكتبَ إليه عمرُ:

أمَّا بعدُ: فالعجبُ كلُّ العجبِ مِن[1] استئذانِك إيَّايَ في عذابِ بشرٍ، كأنِّي لك جُنَّةٌ مِن عذابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وكأنَّ رضائي عنكُم مُنجيكَ مِن سخطِ اللهِ، فانظُرْ مَن قامَتْ عليه البيِّنةُ فخُذْهُ بما قامَتْ عليهِ، ومَن أقرَّ بشيءٍ لك فخُذهُ بما أقرَّ بهِ، ومَن أنكرَ فاستحلِفْهُ باللهِ تعالى وخَلِّ سبيلَه، فواللهِ لأَنْ يلقَوا اللهَ بجناياتِهم أحبُّ إليَّ مِن أنْ ألقى اللهَ بدِمائِهم[2].

وبلغَ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أنَّ بعضَ أولادِه اشترى فَصًّا بألفِ درهمٍ ليختمَ به، فكتبَ إليه عمرُ: عزيمةٌ منِّي عليك يا بنيَّ لمَا بِعتَ الفَصَّ الذي اشتريتَ بألفِ درهمٍ، وتصدَّقْتَ بثمنِه، واشتريتَ فَصًّا بدرهمٍ، ونقشتَ عليه: رحِمَ اللهُ امْرأً عرَفَ قدرَه، والسَّلامُ[3].

وشَكا مزاحمٌ مولى عمرَ إلى عمرَ حاجةَ أهلِ عمرَ وقلَّةَ ما بأيديهِم، فقالَ عمرُ: إنَّ لي نفساً توَّاقةً، لقد رأيتُني وأنا بالمدينةِ غُلامٌ مِن الغلمانِ، ثمَّ تاقت نفسي إلى العِلمِ والعرَبيَّةِ والشِّعرِ فأخذتُ مِنه حاجَتي، ثمَّ تاقَتْ نفسي إلى السُّلطانِ فاستُعمِلتُ على المدينةِ، ثمَّ تاقَتْ نفسي وأنا في سُلطاني إلى اللبسِ والعيشِ الطَّيِّبِ، فما عَلِمتُ أنَّ أحداً مِن أهلِ بيتي ولا غيرِهم كان فيما كنتُ فيه، ثمَّ تاقَتْ نفسي إلى الآخرةِ

---

(١) في (س): «في».

(٢) أخرجه أبو يوسف في «الخراج» (ص: ١٣٢)، و«أنساب الأشراف» للبلاذري (٨/ ١٣٨)، والآجري في «أخبار عمر بن عبد العزيز» (ص: ٧٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٧٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٠٦). وفي (س): «قدر نفسه»، والمثبت من (م) موافق للمصدر.

والعمَلِ بالعدلِ، فأنا أرجو أنْ أنالَ ما تاقَتْ إليه نفسي مِن أمرِ آخرَتي، ولستُ بالذي أُهلِكُ آخرَتي بدُنياهم[١].

وكان عمرُ يقولُ لجُلَسائِه: مَن صَحِبَني منكم فليَصْحبني بخمسِ خِصالٍ: يدلُّني مِن العدلِ إلى ما لا أهتدي له، ويكونُ لي على الخيرِ[٢] عَوْناً، ويُبَلِّغُني حاجةَ مَن لا يستطيعُ إبلاغَها، ولا يغتابُ عندي أحداً، ويؤدِّي إليَّ الأمانةَ التي حُمِّلَها منِّي ومن النَّاسِ، فإذا كان كذلك فحيَّ هَلا بهِ، وإلَّا فهو في حرجٍ مِن صُحبتي والدُّخولِ عليَّ[٣].

وكتبَ عمرُ إلى عاملِه على فِلَسْطينَ أن: اركَب إلى البيتِ الذي يُقالَ له: المَكْسُ فاهدِمْه، ثمَّ احمِلْه إلى البحرِ، فانسِفْهُ في اليمِّ نَسْفاً[٤].

وشكا إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ بعضُ عمَّالِه فكتبَ إليه: اذكُرْ[٥] طولَ سهَرِ أهلِ النَّارِ في النَّارِ مع خلودِ الأبدِ، وإيَّاكَ أن يُنصرَفَ بك مِن عندِ اللهِ فيكونَ آخرَ العهدِ وانقطاعَ الرَّجاءِ.

---

(١) في (س): «بدنياي» والصواب المثبت من (م) موافقاً للمصادر.

أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٣٨٨)، وابن عبد الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص: ٥٩) كلاهما مختصراً. وأخرجه ابن أبي الدنيا في «النفقة على العيال» (٤٦٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٣١).

(٢) في (س): «الحق».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٣٦).

(٤) أخرجه أبو عبيد في «الأموال» (ص: ٦٣٢)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦٠٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٠٦).

وكان بيتاً برفح يقال له بيت المكس. تؤخذ فيه الضرائب من التجار، وهو محرم في الإسلام.

(٥) في (م): «أذكرك».

فلمَّا قرأَ العاملُ الكتابَ طوَى البلادَ حتَّى قدِمَ على عمرَ، قالَ: ما أقدَمَك؟ قالَ: خلعتَ قلبي بكتابِك، واللهِ لا أعودُ إلى وِلايةٍ حتَّى ألقى اللهَ عزَّ وجلَّ[١].

وكتب عمرُ إلى بعضِ مدُنِ الشَّامِ كتاباً، وكان فيهِ[٢]: أمَّا بعدُ: فكم للتُّرابِ في جسدِ ابنِ آدمَ مِن مأكلٍ، وكم للدُّودِ في جوفِه مِن طريقٍ مُخترَقٍ، وإنِّي أُحَذِّرُكم أيُّها النَّاسُ ونفسيَ العرضَ على اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

وكان عمرُ يجمعُ الفقهاءَ كلَّ ليلةٍ فيَتذاكرونَ الموتَ والقيامةَ والآخرةَ، ثمَّ يبكونَ كأنَّ بين أيديهم جنازةً[٤].

وكان عمرُ يوماً في بيتِه فبكى، فبكَتْ زوجتُه، فبكى أهلُ الدَّارِ، لا يدري هؤلاءِ ما أبكى هؤلاءِ، فلمَّا انجَلَتْ عنهمُ العبرةُ قالت له زوجتُه: يا أميرَ المؤمنينَ! ممَّ بكيتَ؟ قالَ: ذكرتُ مُنصرَفَ القومِ مِن بين يدي اللهِ عزَّ وجلَّ فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعيرِ، ثمَّ صرَخَ وغُشِيَ عليه[٥].

وكان آخرَ خطبةٍ خطَبَها على المنبرِ رحمَه اللهُ: أنْ حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ثمَّ قالَ: إنَّكم لم تُخلَقوا عبَثاً ولم تُترَكوا سُدًى، وإنَّ لكم مَعاداً ينزلُ اللهُ فيكم ليحكمَ بينكم ويفصلَ بينكم، خابَ وخسِرَ مَن خرَجَ مِن رحمةِ اللهِ وحُرِمَ جنَّةً عرضُها السَّماواتُ والأرضُ، ألَمْ تعلَمُوا أنَّه لا يأمَنُ غداً إلَّا مَن حَذِرَ اللهَ اليومَ وخافَه، وباعَ نافداً

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٣٧). وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/ ٤٤١).

(٢) في (س): «وكتب فيه».

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القبور» (١٨١).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٥/ ٢٣٩).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٥٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٦٩).

بباقٍ، وقليلاً بكثيرٍ، وخوفاً بأمانٍ، ألا ترونَ أنَّكم في أسلابِ الهالكينَ؟ وسيصيرُ مِن بعدِكم للباقينَ، وكذلك حتَّى تُرَدَّ إلى خيرِ الوارِثينَ، ثمَّ إنَّكم تُشَيِّعونَ كلَّ يومٍ غادِياً ورائحاً قد قضى نحبَه وانقضى أجلُه حتى تُغيِّبوهُ في صدعٍ مِن الأرضِ في شقِّ صدعٍ، ثمَّ تتركونَه غيرَ مُمَهَّدٍ ولا مُوَسَّدٍ، قد فارقَ الأحباب، وباشرَ التُّراب، وواجهَ الحِساب، مُرتهَنٌ بما عَمِل، غنيٌّ عما ترَكَ، فقيرٌ إلى ما قدَّمَ، فاتَّقوا اللهَ عزَّ وجلَّ قبلَ نُزولِ الموتِ وحُلولِه بكم.

أَمَ واللهِ إني لأقولُ هذا وما أعلمُ عند أحدٍ مِن الذُّنوبِ أكثرَ ممَّا عندي، وأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، وما مِنكم مِن أحدٍ يُبَلِّغُنا حاجتَه إلا يتَّسِعُ له ما عندنا إلا تمنيت أنْ يبدأَ بي وبخاصَّتي حتَّى يكون عيشُه وعيشُنا واحداً.

أَمَ واللهِ لو أردتُ غيرَ هذا مِن غضارةِ العيشِ لكان اللِّسانُ ذلولًا، وكنتُ بأسبابِه عالماً، ولكن سبقَ مِن اللهِ كتابٌ ناطقٌ وسنَّةٌ عادلةٌ دلَّ فيها على طاعتِه، ونهى فيها عن مَعصِيَتِه، ثمَّ رفعَ طرفَ ردائِه فبكى حتى شهقَ وأبكى مَن حولَه، ثمَّ نزلَ ولم يخطُب بعدَها حتَّى ماتَ رحمَه الله[1].

وكتبَ عمرُ إلى عاملِه على البصرةِ:

أمَّا بعدُ: فإنِّي أذكركَ بليلةٍ تُمَخَّضُ بالسَّاعةِ فصباحُها القيامةُ، يا لها مِن ليلةٍ، ويا له مِن صباحٍ كان على الكافرينَ عسيرًا[2].

---

(١) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٦/ ٥٧١)، ويعقوب بن سفيان الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٦١٢)، وابن عبد الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص: ٣٧)، وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٢٨٧) مختصراً. وكانت الخطبة بخناصرة قرب حلب.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٣٠٢).

وبكى عمرُ ذاتَ ليلةٍ، فاشتدَّ بكاؤُه، فلمَّا أصبحَ قالَ لغلامِه:

يا بنيَّ! ليس الخيرُ أن يُسمعَ لك ويُطاعَ، وإنَّما الخيرُ أن تعقِلَ عن ربِّكَ ثمَّ تطيعَه.

يا بنيَّ! لا تأذنِ اليومَ لأحدٍ عليَّ حتَّى يَرتفِعَ النَّهارُ، فإنِّي أخافُ أن لا أعقِلَ عن النَّاسِ ولا يفهمونَ عنِّي.

فقالَ الغلامُ: بأبي أنت يا أميرَ المؤمنينَ! رأيتُكَ الليلةَ بكيتَ بكاءً ما رأيتُك بكيتَ مثلَه، قالَ: فبكى ثمَّ قالَ: يا بنيَّ! إنِّي واللهِ ذكرتُ الوقوفَ بين يدي اللهِ عزَّ وجلَّ، قالَ: ثم غميَ عليه فلم يُفِق حتى علا النَّهارُ، قالَ: فما رأيتُه بعد ذلك مُتبسِّمًا حتَّى ماتَ رحمَه الله(١).

وجاءَ أعرابيٌّ يوماً إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ جاءت بي الحاجةُ وانتهتِ الغايةُ، واللهُ سائلُك عنِّي يوم القيامةِ قالَ: ويحكَ أعِدْ عليَّ فأعادَ عليه، فنكسَ عمرُ رأسَه وأرسلَ دموعَه حتى ابتلَّتِ الأرضُ، ثمَّ رفعَ رأسَه فقالَ: ويحكَ! كم أنتم؟ قالَ: أنا وثلاث بناتٍ، ففرضَ له على ثلاثمائةٍ وفرض لبناتِه على مائةٍ، وأعطاه مائة درهمٍ وقالَ: هذا لك من مالي ليس مِن أموالِ المسلمينَ، اذهَبْ فاستنفِقْها حتى تخرُجَ أعطياتُ المسلمينَ وتأخذَ معَهم(٢).

وأتاه رجلٌ مِن أهلِ أذربيجانَ فقامَ بين يديه، فقالَ له: يا أميرَ المومنينَ! اذكُر بمقامي هذا بين يديك مقاماً لا يشغلُ اللهَ عزَّ وجلَّ عنك كثرةُ مَن يخاصمُ مِن الخلائقِ يومَ تلقاهُ بلا ثقةٍ مِن العملِ ولا براءةٍ مِن الذَّنبِ، فبكى عمرُ بكاءً شديداً ثمَّ قالَ:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٥٤).

(٢) أخرجه ابن زنجويه في «الأموال» (٨٥٩)، وابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٢٤).

ويحك اردُد عليَّ كلامَك هذا، فجعل يُردِّدُه وعمرُ يبكي ويَنتحِبُ، ثمَّ قالَ: حاجتَك، قالَ: إنَّ عاملَ أذربيجانَ عدا عليَّ، وأخذَ منِّي اثني عشرَ ألفَ درهمٍ فجعَلَها في بيتِ مالِ المُسلمينَ، فقالَ عمرُ: اكتبُوا له السَّاعةَ إلى عاملِها حتى يردَّ عليه(١).

ووعظَه رجلٌ مِن الصَّالحينَ يوماً فقالَ له: يا أميرَ المؤمنينَ! ما مِن أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ أحدٌ إلا وهو خصمٌ لك، فبكى عمرُ حتَّى تمنَّى ذلك الرَّجلُ أنَّه لم يكن قالَ له شيئًا(٢).

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يوماً لخالدِ بنِ صفوانَ: عِظني وأوجِز، فقالَ له: يا أميرَ المؤمنينَ! إنَّ أقواماً غرَّهُم سترُ اللهِ تعالى وفتَنَهم حسنُ الثَّناءِ فلا يغلبنَّ جهلُ غيرِك بك معرفتكَ بنفسِك، أعاذنا اللهُ وإيَّاكَ أن نكونَ بالسترِ مغرورينَ، وبثناءِ النَّاسِ مَفتونينَ، وعما افترضَ اللهُ علينا مُتخلِّفينَ، وإلى الهوى مائلينَ، فبكى عمرُ ثمَّ قالَ: أعاذَنا اللهُ وإيَّاكَ مِن اتِّباعِ الهوى(٣).

وقالَ خالدُ بنُ صفوانَ يوماً لعمرَ: إنَّ اللهَ لم يرضَ أن يكون أحدٌ فوقكَ، فلا ترضَ أن يكونَ أحدٌ أولى بالشُّكرِ منك، فبكى عمرُ حتَّى غشيَ عليه، ثمَّ أفاقَ فقالَ: يا خالدُ! لم يرضَ أن يكونَ أحدٌ فوقي فواللهِ لأخافنَّه خَوْفاً، ولأحذرنَّه حَذَراً، ولأرجونَّه رجاءً، ولأحبنَّه محبَّةً، ولأشكرنَّه شُكراً، ولأحمدنَّه حَمْداً يكون ذلك كله طاقَتي، ولأجتهدنَّ في العدلِ والنصفةِ والزُّهدِ في فاني الدُّنيا لزوالِها، والرَّغبةِ في بقاءِ الآخرةِ ودوامِها حتَّى ألقى اللهَ عزَّ وجلَّ، فلعلِّي أنْ أنجوَ مع النَّاجينَ، وأفوزَ مع الفائزينَ، وبكى حتَّى غُشِيَ عليه فقامَ خالدٌ وترَكَه على حالِه(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٢٥).

(٢) انظر: «سراج الملوك» للطرطوشي (ص: ٣٣)، و«البداية والنهاية» في سنة إحدى ومئة.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٨)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٤٤٩).

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٣٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٩٦).

وقرأ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يوماً هذه الآيةَ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١] إذ تفيضونَ فيه، فبكى عمرُ بكاءً شديدًا حتَّى سَمِعَه أهلُ الدَّارِ، فجاءت زوجتُه فجلسَت تبكي لبُكائِه وبكى أهلُ الدَّارِ لبكائِهما، فجاء ابنُه عبد الملكِ فدخلَ عليهم وهم على تلك الحالِ، فقالَ: يا أبه! ما يبكيكَ؟ قالَ: خيرٌ يا بنيَّ، ودَّ أبوكَ أنَّه لم يعرِفْ الدُّنيا ولم تعرفْه، والله يا بنيَّ لقد خشيتُ أن أهلِكَ، واللهِ يا بنيَّ لقد خشيتُ أن أكونَ مِن أهلِ النَّارِ[١].

ودخلَ يوماً سابقٌ البربريُّ الشَّاعرُ على عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ فقالَ له عمرُ: عِظني يا سابق وأوجِز، قالَ: نعم وأبلغ يا أميرَ المؤمنينَ إن شاءَ الله، قالَ: هاتِ، فأنشدَه:

إذا أنتَ لم ترحَلْ بزادٍ مِن التُّقَى ... ووافيتَ بعدَ الموتِ مَن قدْ تزوَّدَا

نَدِمْتَ على أن لا تكونَ شَرَكتَه ... وأَرْصَدتَ قبلَ الموتِ ما كان أَرْصَدَا

فبكى عمرُ حتَّى سقطَ مغشيًّا عليه[٢].

وأنشدَ يومئذٍ قصيدةً طويلةً حسَنةً تشتمِلُ[٣] على حكمٍ ومواعظٍ، أنشدَها لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، ونحن نذكرُها ونختِمُ بها الكتابَ[٤]:

باسمِ الذي أُنزِلَت مِن عندِه السُّوَرُ ... والحمدُ للهِ أمَّا بعدُ يا عمَرُ

إن كنتَ تعلَمُ ما تأتي وما تذَرُ ... فكُنْ على حذرٍ قد ينفَعُ الحذَرُ

واصبِرْ على القدَرِ المقدورِ وارضَ بهِ ... وإنْ أتاكَ بما لا تَشتَهي القدَرُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٩١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣١٨). والبيتان للأعشى في «ديوانه» (ص: ١٣٧).

(٣) في (س): «مشتملة».

(٤) زاد في (س): «قال متمثلًا».

فما صفا لامرئٍ عيشٌ يُسَرُّ بهِ ... إلَّا وأعقَبَ يوماً صفوَه كدَرُ

قد يَرْعوِي المرءُ يوماً بعدَ هفوتِه ... وتحكمُ الجاهلَ الأيَّامُ والغِيَرُ

إنَّ التُّقى خيرُ زادٍ أنت حامِلُه ... والبِرُّ أفضَلُ ما تأتي وما تذَرُ

مَن يَطلُبِ الجورَ لا يظفَرْ بحاجَتِه ... وطالبُ العدلِ قد يُهدَى له الظَّفَرُ

وفي الهُدَى عِبَرٌ تُشفَى القلوبُ بها ... كالغيثِ تنضرُ عن وسميِّهِ الشَّجرُ

وليس ذو العلمِ بالتَّقوى كجَاهِلِها ... ولا البصيرُ كأعمى ما له بصَرُ

لا يُشبِعُ النَّفسَ شيءٌ حين تُحرِزُه ... ولا يزالُ لها في غيرِه وطَرُ

ولا تزالُ وإن كانتْ لها سَعةٌ ... لها إلى الشَّيءِ لم تظفَرْ بهِ نظَرُ

والذِّكرُ فيه حياةٌ للقُلوبِ كما ... يُحيي البِلادَ إذا ما ماتَتِ المطَرُ

والعِلمُ يجلو العمَى عن قلبِ صاحبِه ... كما يُجَلِّي سوادَ الظُّلمةِ القمَرُ

لا ينفعُ الذِّكرُ قلباً قاسِياً أبداً ... وهل يَلِينُ لقولِ الواعِظِ الحجَرُ

ما يلبثُ المرءُ أنْ يبلَى إذا اختلفَتْ ... يوماً على نفسِه الرَّوحاتُ والبكُرُ

والمرءُ يصعدُ ريعانُ الشَّبابِ بهِ ... وكلُّ مُصعِدَةٍ يَوْماً ستَنحدِرُ

بينا ترى الغُصنَ لَدْنًا في أَرومَتِه ... ريَّانَ صارَ حُطاماً جوفُه نَخِرُ

وكلُّ بيتٍ خرابٌ بعدَ جِدَّتِه ... ومِن وراءِ الشَّبابِ الموتُ والكِبَرُ

والموتُ جسرٌ لِمَن يمشي على قدَمٍ ... إلى الأمورِ التي تُخشَى وتُنتظَرُ

فهم يمرُّونَ أفْواجاً وتجمعُهم ... دارٌ إليها يصيرُ البدوُ والحضَرُ

[من][1] جميعِ أشتَّ الدَّهرُ شملَهُمُ ... وكلُّ شملٍ جميعٍ سوفَ يَنتشِرُ[2]

وربَّ أصيَدٍ سامي الطَّرفِ معتصبٍ ... بالتَّاجِ نيرانُه للحربِ تَستعِرُ

يظلُّ مُفترِشَ الدِّيباجِ مُحتجِباً ... تُبنى عليه قبابُ الملكِ والحُجَرُ

قد غادرَتْهُ المنايا وهو مُستلَبٌ ... مُجدَّلٌ تَربُ الخدَّينِ مُنعَفِرُ

أبعدَ آدمَ ترجونَ البقاءَ وهَلْ ... تبقى فروعٌ لأصلٍ حينَ يَنقعِرُ

لكم بيوتٌ بمستنِّ السُّيولِ وهل ... يبقى على الماءِ بيتٌ أسُّهُ مدَرُ

إلى الفناءِ وإن طالَتْ سلامَتُهم ... مصيرُ كلِّ بني أنثى وإن كبرُوا

إذا قضَتْ زُمَرٌ آجالَها نزلَتْ ... على منازِلِها مِن بعدِها زُمَرُ

أصبحتمُ جُزراً للموتِ يأخذكم ... كما البهائمُ في الدُّنيا لكم جُزُرُ

وليس يزجرُكُم ما توعظونَ بهِ ... والبَهْمُ يزجرُها الرَّاعي فتنزجِرُ

لا تبطروا واهجُروا الدُّنيا فإنَّ لها ... غِبًّا وخيماً وكفرُ النِّعمةِ البطَرُ

ثمَّ اقتدوا بالأُلَى كانوا لكم غُرَرًا ... وليس مِن أمَّةٍ إلَّا لها غُرَرُ

حتَّى تكونوا على منهاجِ أوَّلِكُم ... وتصبِرُوا عن هوى الدُّنيا كما صبَروا

ما لي أرى النَّاسَ والدُّنيا مُوَلِّيةً ... وكلُّ حبلٍ عليها سوفَ يَنتشِرُ

لا يشعرونَ بأنَّى دينِهم نقصوا ... جهلاً وإن نقَصَتْ دُنياهُمُ شَعَروا

حتَّى متى أنا في الدُّنيا أخو كلفٍ ... في الخدِّ منِّي إلى لذَّاتِها صعَرُ

---

(١) سقطت من النسختين واستدركت من المصادر.

(٢) هنا تنتهي النسخة (س).

وقد أضاف من نشر الكتاب عنها قبلاً الأبياتَ التاليةَ وغيرها من المصادر.

ولا أرى أثـراً للـذِّكرِ فـي جسَـدِي والحبلُ فـي الحجَـرِ القاسـي لـه أثَـرُ

لـو كان يُسـهِرُ عينـي ذكـرُ آخرَتـي كـمـا يُـؤرِّقُـنـي للعاجـلِ السَّـهَرُ

إذاً لـداويتُ قـلـبًـا قـد أضـرَّ بـهِ طـولُ السِّـقامِ وهَيْضُ العظَـمِ يَنجبِرُ[1]

آخرُ الكتابِ.

والحمدُ للهِ وحدَه، وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ وآلِه وصحبِه وسلَّمَ

كتبَه لنفسِه ولِمَن شاءَ اللهُ بعدَه العبدُ الفقيرُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ خَضِرٍ الحنبليُّ النَّجَّادُ عفا الله عنه وعن والديهِ وعن مَن دعا له بالمغفرةِ والرَّحمةِ ولجميعِ المسلمينَ آمينَ ربَّ العالمينَ، وحسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ.

[فائدة][2]

الحمد للّه

توفِّي عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ بديرِ سَمْعانَ مِن أرضِ حِمصَ يومَ الجمعةِ لخمسِ ليالٍ بقينَ مِن رجَبٍ سنةَ إحدى ومئةٍ، وكان له يوم ماتَ إحدى وأربعونَ سنةً، وكان خلافتُه سنتينِ وخمسةَ أشهُرٍ وخمسَ ليالٍ.

ويُقالُ: كان شكواهُ عشرينَ يوماً، ولم يستكمِلْ أربعينَ سنةً رحمةُ اللهِ عليه.

---

(١) أنشده لسابق البربري: ابن أبي الدنيا، ومن طريقه: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٠/ ٩) وذكر القصيدة ابن الجوزي في «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز» (ص: ١٦٩)، وانظر: «أنساب الأشراف» (٨/ ١٤٢)، و«حلية الأولياء» (٢/ ١٨٩)، وذكر الأبيات عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أبي مسعود الهذلي كتب بها إلى عمر بن عبد العزيز.

(٢) وهي مما كتبه أحدهم، ليست للمصنف.

وكان يُكثِرُ مِن إنشادِ هذا البيتِ:

إذا مـــا أتَـتْـــكَ الأربـعـــونَ فعِندَها فاخـشَ الإلـهَ وكُنْ للموتِ حـذَّارَا[1]

فماتَ لها.

وقالَ الذَّهبيُّ: ماتَ سنةَ عشرٍ[2] ومئةٍ لعشرٍ بقينَ مِن رجبٍ[3]، واللهُ أعلَمُ.

* * *

(١) انظر: «حلية الأولياء» (٥/ ٢٦٩).

(٢) خطأ من الناسخ. الذهبيُّ بريء منه والصواب ما تقدم سنة إحدى ومئة.

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٤٥)، و«تاريخ الإسلام» (٧/ ٢٠٦).